

مَع ناجي... ومَعَها

غازي عبد الرحمن القصيبي

مَع ناجي... ومَعَها



مَعَ ناجي...ومَعَها

مع ناجي ... ومعها / دراسة أدبيّة
غازي عبد الرحمن القصيبي / مؤلّف من السعوديّة
الطبعة العربيّة الأولى ، ١٩٩٩



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد سيبي ®
لوحة الغلاف :
محمّد الروسان / الأردن
الصفّ الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

الإهداء

إلى ذكرى ناجي

و إلى

" زهرة المستحيل "

سوف أحدّثك، يا حلوتي، عن الشعر. وعن ناجي، هذا الشاعر القريب من قلبي. اعلمي، يا رعاك اللّه، أن أحداً لم يستطع حتّى هذه اللحظة أن يعرّف الشعر تعريفاً يليق بالشعر. ولا أتوقع أن يستطيع أحد في المستقبل. والسبب؟! السبب أن التعريفات كلّها، بلا إستثناء، أوصاف خارجية. لا تقدر على أن تنفذ من الخارج إلى الداخل. خذي، على سبيل المثال، أشهر تعريف في التاريخ: "الإنسان حيوان ناطق". تعريف صحيح، جامع مانع. ولكن هل يقول لنا هذا التعريف شيئاً، أيّ شيء، عن سخاء إنسان ما أو غبائه أو نبله أو حيائه أو خسّته؟ حتّى التعريفات العلمية لا تشفي

الغليل. درسنا جميعاً في المدرسة أن الماء هو أوكسجين وهيدروجين. ولكن هل يقول لنا التعريف هل الماء الذي نشربه من مياه النهر الخالد - وهناك نهر خالد واحد! - أو من مياه مصنع التحلية؟ هل تريدين، يا أحلى قصيدة، سبباً ثانياً يجعل الشعر يستعصي على التعريف؟ اعلمي، يا حلوتي، أن الشاعر عندما يكتب شعراً يحاول أن يصف شيئاً ما في نفسه، الجوع مثلاً. ولكنه يحاول، في الوقت نفسه، أن يوصل رسالة عن الشيء الذي في نفسه، الجوع مثلاً، إلى الآخر، القارىء، أو الحبيبة، أو الجمهور، أو التاريخ. ومتطلبات التعبير عن الشيء كثيراً ما تتناقض مع متطلبات إيصال الرسالة. التعبير مجهود فردي والاتصال مجهود يتجاوز الفرد الواحد. ومتطلبات الإيصال تتغيّر بسرعة مذهلة من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان. " أنا جائع كالصحراء "، رسالة يفهمها البدوي بكل وضوح،ولكن هل يفهمها من لم ير الصحراء في حياته؟ " أنا جائع كجهاز تمزيق الأوراق "، رسالة يفهمها كل مدير شاب ولكن هل يفهمها البدويّ في

الصحراء؟ وسادتنا النقادّ والأكاديميون كثيراً ما يخلطون بين ضرورات التعبير وضرورات الإتصال. وتكون النتيجة حوار الصّم والبكم الذي يصّك أسماع الصفحات الثقافية. هل تريدين، يا غاليتي المقفّاة، سبباً ثالثاً؟ لم يكن للشعر دور واحد عبر الأزمنة والأمكنة. في الجاهلية، كان الشعراء يصنفون ضمن السحرة والكهان. كان هجاؤهم يرعب إلى درجة جعلت الكثير منهم - آسف، لا توجد لديّ احصائية!- يموتون مقتولين بسبب الرعب الذي أدخلته قصيدة الهجاء في قلب القاتل المهجّو. الآن، يكتب الشعراء قصائدهم بالكومبيوتر. يغضب شعراء اليوم لو وصفهم أحد بالكهّان ورفاق الشياطين. هل أطلتُ عليك الحديث؟ حسناً! سوف أعرض عليك تعريفي المتواضع جداً، للشعر:

الشعر قفز لحظةٍ

من الحياة في نغمْ

وهو تعريف سهلٌ قصيرٌ منظوم. إذا شعرتِ عندما تقرأين شعراً أنه يعبّر عن لحظة في حياتك انت، ويعبّر عنها بطريقة موسيقية، فأعلمي أنك بصدد شعر. وشعر ناجي قريب من قلبي لهذا السبب. أحس عندما أقرأه انه يتحدّث عن حبّي أنا. عن ظمأي أنا. عن شقائي أنا. عن سعادتي أنا. لا تقرأي، ياحلوتي، سوى الشعر الذي تجدين نفسك فيه. وأرمي ما عداه. بلا مبالاة. اتركي بقية المعايير لسدنة النقد العظام. دعي أعظم الشعراء لأعظم الأكاديميين. واتركي امراء الشعر للملوك التنظير. وتمسكي بالشعر القريب من قلبك. ولو قاله مجنون. أو طفل. أو شيخ خرف. أو مغمور لم يبايعه أحد أشعر الجن والإنس. ولم يقل أحد أنه شاعر العالم. أو نصف العالم، على أقلّ تقدير. آه! كم كان ناجي سيحبّك لو رآك. كيف أعرف؟ أعتقد أني أعرف عن ناجي ما يجعلني أعرف ذوقه. لم يكن ناجي عاشقاً سعيداً، أيتها الحلوة السعيدة. العشّاق السعداء لا يكتبون أشعاراً خالدة. وأوشك أن أقول العشّاق السعداء لا يوجدون. إما أن تكون عاشقاً أو

تكون سعيداً. هذه إشكالية الحب" ، أيتها الصغيرة العذبة. لماذا يقول الناس، هذه الأيام، "إشكالية" ولا يقولون "مشكلة؟ لا أدري! لعلّ الكلمة من متطلبات الحداثة. لعلّها وردت في المواصفات التي يصدرها، بصيفة دورية مملّة، سَدْنة النقد العظام. لم يكن ناجي يعرف كلمة إشكالية، رغم أن علاقاته بحبيباته إشكاليات متجدّدة:

لا تقُل لي: "ذاك نجمٌ قد خبا"
يا فؤادي! كُلُّ شيءٍ ذَهَبا
ذلك الكوكب قد كان لعينى
السماوات .. وكان الشُهَبا
هذه الأنوار .. ما أضيعها
صِرن في قلبي جِراحاً ..وظُبَى
كلّما أهدتْ شعاعاً خلفّتْ
بعده سجناً.. ومدّتْ قُضُبَا

هذه قصيدة " ظلام "، أيتها المضيئة. رائعة من روائع ناجي. ومعظم روائع ناجي رباعيات من بحر

الرمل. ولا أدري السبب. ولا أعتقد أن أحداً من النقّاد يدري. ولا أظن أن ناجي نفسه كان يدري. ولسنا، على أية حال، بصدد الحديث عن أوزان الشعر. نحن بصدد " ظلام " ومطلعها المثير. الحديث إلى القلب. ناجي، يا حلوتي، يحب أن يبدأ قصائده بحديث إلى قلبه، لا تصدقيني ؟! إذن، إسمعي! هكذا تبدأ قصيدة "المنصورة":

بأيّ مُعجزةٍ في الحبِ نتّفقُ ؟

يا قلب! لا يتلاقى الفجر والغَسَقُ

وهكذا تبدأ قصيدة " وقفة على دار":

قف يا فؤاد على المنازل ساعا

فهنا الشباب على الأحبّة ضاعا

وهكذا تبدأ قصيدة " كبرياء ".

نداؤك يا فؤاد؟ كفى نداءَ!

أما تنفّك تسقيني الشقاءَ؟

وهكذا تبدأ قصيدة "غيوم"، وكأنها موشح أندلسي:

إنْ تجدْ يا قلبُ قلباً وَلِها

عن حبيبٍ مات فيها ولَهَا

وهكذا تبدأ الأطلال الشهيرة:

يا فؤادي! رحم اللّه الهوى

كان صرحاً من خيالٍ فهوى

هذه البداية غيّرتها أم كلثومٍ، سامحها اللّه، فجعلتها: "يا فؤادي ! لا تَسلْ أين الهوى". وقد عبثت أم كلثوم بالقصيدة عبثاً مريعاً تعاقب عليه القوانين وتعاتب عليه الأخلاق. إلا أنها جعلت القصيدة المغمورة قصيدة مشهورة. وتلك قضية أخرى. حزينة بعض الشيء. مألوفة عبر التاريخ. علامة الحب/ الكره بين الصوت والكلمات. بين الشاعر والمغنّي. موضوع شائق شائك. لم يتعرض له أحد من سادتنا النقّاد العظام. وقد أتعرّض له ذات يوم. أمّا الآن فأريد أن أعود إلى "ظلام". تأمّلي، يا حلوتي، كيف أصبحت

حبيبة ناجي كل النساء. لا ! لم يقل ناجي ذلك مباشرة. جعلها كل النساء حين حوّلها إلى نجم يراه كل الناس. تسألين: " وما العلاقة بين النجم والحبيبة؟". البعد والبريق، أيتها المضيئة الوضيئة، البريق والبعد. ولم يكتف ناجي بذلك. جعل هذا النجم السماوات كلها والشُهبَ كُلّها. النجم غير الكوكب، كما تعرفين. النجم يشعّ والكوكب يعكس. والفرق يهمّ علماء الفلك.ولكنه لا يهمّ علماء العشق. وناجي لم يكن من علماء الفلك. كان من علماء العشق. والحديث عن العلم يجرّني إلى موضوع آخر. في جامعات أمريكا، يا صغيرتي الحسناء، تُدرّس مادة إسمها " تذوق الشعر"، (أو " تفهّم الشعر " إذا أردنا الدِقة الحرّفية). أمّا في جامعاتنا فالمسألة، شأنها شأن معظم المسائل، متروكة للتساهيل. لو كُنتُ مدرّساً أدرّس الطلبة مادة " تذوق الشعر" لشرحتُ لطلاّبي المقطع الأول من "ظلام" على النحو التالي: يخاطب شاعرنا فؤاده قائلاً: " لا تحاول تسليتي. لا تقُلْ إنها مُجرد امرأةٍ ذهبتْ. الموضوع أخطر من ذلك. بكثير.

وأكبر من ذلك. بكثير. بذهاب هذه المرأة ذهب كل شيء. كانت هذه المرأة نجماً ملأ السماوات. ووزّع نفسه على كل شهاب فيها. كما كان عُروة بن الورد الصعلوك يقسّم جسمه في جسوم كثيرة. حقيقة الأمر أن النساء، بعدها، عذاب وشقاء. والأضواء، بعد رحيلها، ظلام مليء بالجراح والنصال والقيود". هل فهمتم، أيّها الطلاّب الأعزاء، كيف صوّر لنا الشاعر ذهاب حبيبته؟ وأنت، يا طالبتي الصغيرة الحلوة، هل فهمت ؟ فهمت؟! وتريدين المزيد؟ حسناً:

قلتُ " اسلوكِ !".. وكم من طعنةٍ

بالمداراة.. وبالوقت تهونْ

فإذا حُبّكِ يطغى مزبداً

كدفوق السّيلِ .. طغيان الجنونْ

وكذا تمضي حياتي كُلّها

بين يأسٍ .. ورجاءٍ .. وظنونْ

ما على الهجر معينٌ أبداً

وعلى النسيان... لا شيء يُعينْ

في المقطع شيء من النثرية. شيء من الرتابة. لا بأس! لا يستطيع الشاعر أن يكون شاعراً في كل بيت. ولا في كل قصيدة. كفى الشاعر فخراً أن تُعدّ قصائده. وبشارٌ قنع ببيت جميل واحد من كل قصيدة. وريلكه العظيم، الذي عاش ومات بين الورد والشوك، قنع بعشرة أبيات حلوة. يكتبها الشاعر قبل موته. بعد حياة حافلة بالتجارب الحافلة. والنثرية، هنا، لا تخلو من شاعرية. شيء من التناقض؟ رُبّما! لا يوجد شيء في العالم ينعِشه التناقض كالشعر. مع إحترامي العظيم للسادة المناطقة. النثرية، هنا، تمشي يداً بيد مع حالة الشاعر النفسية. الشاعر العظيم لا يُسفّ حتى عندما يُسفّ. تنقذُ شعره جرثومة الصدق المتأصلة في كل شعر حقيقي. (وجرثومة كلمة غير شاعرية يغفر لها سِياق الحديث عن النثرية). وهذا المقطع لا يحتاج إلى شرح، أيتها الغالية الصغيرة. كان شاعرنا يأمل أن تندمل طعنة الفراق بالمداراة وبالوقت. ناجي كان طبيباً، يا حلوتي، ومداراة الطعنة صورة يصعب أن تدور ببال أحد ما لم يكن طبيباً. ولكن الطعنة لم

تتعاون. وتركت شاعرنا غريقاً يتخبط بين اليأس (أمل النسيان) والرجاء (أمل اللقاء) والظنون (التأرجح بين الأملين). وهو، في غمرة هذا العذاب، لا يجد من يعينه. وقبله، قال شاعر عظيمُ آخر صادقاً: "إذا عَظم المطلوب قلَّ المُساعد". إستمعي، يا حلوتي الصغيرة، إلى القصّة من بدايتها:

ذلك الحُبّ الذي فُـــزتُ به

لا أبالي فيه ألوانَ المَـــــلامةْ

ذلك الشّـــط الذي ذقتُ به

بعد لجّ البحرِ .. أمناً وسلامةْ

إنّـــه مـــزّق قلبي قسْـــوةً

وسقاني المرّ من كأس النـدامةْ

صار ناراً ودماراً في دمـــي

وصراعاً بين قلبٍ .. وكرامـةْ

ماذا يحدث هنا؟! ماذا يحدث هنا؟! تحدُث هنا، كلّ تناقضات الحُبّ والحب، كالشعر، يتنفّس هواء التناقضات. هنا " فوز" بحُبّ يتحول إلى شطّ للأمن

والسلامة (السلامة؟! عـاد الطبيـب إلى الحديـث!). لا تقـولي، رجـاءَ!، أن كلمـة شــطّ عاميّــة. كـل كلمــة يستعملها شــاعر تتحـول، تلقائيـاً، إلى كلمـة فصيحـة. تذكّري كيف حول نزار قبـاني "الفسـاتين" مـن كلمـة مبتذلة إلى كلمة مـن إنتـاج العـرب العاربـة. اللغـة، يـا صغيرتي، من صنـع الشـعراء، لا مـن صنـع المجـامع ولا أساتيذ النقد العظام ولا فحول النحو والصرف الكـرام. وكل من عاش في القاهرة، يا خمريّـة اللـون، يعـرف أن تسمية "شط" النيـل " شـاطيء" تقعّـر لا مُـبرّر لـه. ولا مُبرّر لأن تفهمي معنى التقعّـر. يهـم أن تعـرفي أن هـذا الشّط الذي كان مرتع الأمـن والسـلامة تحـوّل إلى نـار ودمار. ياللّهول!! لا تسـتغربي! أمـامك مراحـل الحـب المتدرجة يرويها، بدقّة متناهيـة، خبير من خبراء الحُـب. المرحلـة الأولى: أحـبّ شـاعرنا، وكـان الحـب شـيئاً لا يُصدَّق، كان فوزاً، كان حلماً فـوق متَنَـاول الأحـلام. المرحلة الثانية: أدرك شاعرنا أو تصوّر، أن الحبيبة تبادله مشاعره فأصبحت العلاقة ملاذاً آمنـاً مـن ذعـر العالــم (أكثر أمناً من المناطق التي تعلن الأمـم المتحدة حمايتهـا..

ولا تفعل!) المرحلة الثالثة: حدث لناجي ما يحدث في قصص الحب دائماً وأبداً- واحسرتاه! دائماً وأبداً! - اشتعلت الجحيم. والجحيم هو ذلك الصراع التاريخي الشهير بين القلب (الذي يحبّ) والكرامة (التي تعرف أن القلب يحبّ امرأة لا تحبّه). دعينا، الآن، من المرحلة الثالثة الأليمة. لنبدأ بأوقات السعادة. كان ناجي، أيامها، يحمل شعوراً شبيهاً بشعورك نحو الرجل الذي أكاد أشعر بالغيرة لكثرة حديثك عنه. هل قلتُ: "أكاد"؟ أكذب! أشعر بالغيرة. وبما يتجاوز الغيرة. من هو هذا الرجل؟ ما شكله؟ ما لونه؟ ما عمره؟ ما حجمه؟ (سؤال سخيف ،هذا الأخير!) لا تودّين أن تتكلمي؟ حسناً! أتركك وشأنك. وأعود إلى ناجي الذي دخل، الآن، مدرسة الحب الكبرى:

ذلك الحُبّ الذي علّمني

أن أحبّ الناس والدنيا جميعا

ذلك الحُبّ الذي صوّر مِنْ

مجدب القفر لعينيَّ ربيعا

إنه بصّرني كيْف الورى

هدموا من قدسه الحصن المنيعا

وجلا لي الكون في أعمـــاقه

أعيناً تبكي دماءً.. لا دموعـا

.

هكذا، وإلاّ فلا!، يكون الحُبّ. نتعلـم من الحُـبّ حبّ الناس. ونتعلـم منه حبّ القفر المجدب الذي تحوله لمسة الحب إلى ربيع. ونتعلـم منه قُدسية المبـادىء. هـل هذا كل شيء ؟ لا، يا أميرتي الصغـيرة الحلـوة! الحـبّ الذي يكتفي بإعطائك جُرعة مُركّزة من السـعادة ليس حُبّاً: إنه مُجرّد فيلـم هزلي. الحـب الحقيقـي هـو الـذي يربطك بالمعضلة الإنسانية، بالمأساة البشرية. هـو الـذي يشـدّ دموعـك إلى دمـوع كـل طفلـة جائعـة تبكـي في الظلام. هو الـذي يربـط نبضـات قلبـك بنبضـات كـلّ قلب حزين يدق في صمت اليأس. الحـب، ياصغـيرتي، هو الذي يريك العالـم بلا أقنعة. تكتشفين، عبر الحب، معاناة البشر أجمعين. تريـن الكـون، في أعمـق أعماقـه، ينزف دموعاً كالدماء (أو دماءَ كالدموع!). عـن هـذه المعاناة يقول ناجي:

بيَ الجرحُ.. جرحُ الكوْنِ.. من قبل آدمٍ

تغلغـل في الأرواح.. يْدمى.. ويستشري

تأمّلي عرض هذا الجرح وطوله وفتكـه بـالأرواح عـبْر ملايـين السـنين. ومـع ذلـك تريديـن ان تُحبّــى؟! تريدين أن تدخلي هذا العالـم المسحور المخيف؟! أنت، الآن، تحبيّـن النـاس والدنيـا. تبصريـن المـروج الخضـراء منبثقة من قلب كل صحراء. ولكــن مـاذا عـن الجـانب المظلــم مـن الصـورة؟ الحـبُ لا يتجـزّأ، أيتهـا الغاليــة، يُؤخذ كُلّــه أو يُـترك كلّـه. مـع الربيـع تجـيء الدمـوع/ الدماء. لا تصدقيني؟ أفجع ما في الحب، وأكثر مـا فيـه فاجع، إنه لا يدوم. كنتُ في سنٍ قريبة من سنّك، أيتها الصغيرة، عندما كتبت هذه الأبيات الحزينة:

لا تسألي: " ماذا مصير حُبّنا؟!"

لا تبحثي عن ومْضة اشتياقْ

لا شيء في أعيننا سوى الوجومْ

لا تعجبي..إن فـرّت الظِلالْ

من أفقْها .. وغارت النجومْ

ولكن دعينا منّي الآن. ولنعد إلى صديقنا. الـذي يكتشف أن الحب وردة قصيرة العمر:

لـم تعيننى على صرْف النَـــوَى

آه! لو كنتِ على الدهر أعنـــتِ

قـــدرٌ نكـــسَ منى هـــامتي

آذن الدهــــــر ببينٍ .. وأذنتِ

وعجيبٌ أمـــر حُـــبّ لـم يَهُنْ

هو هـــان على نفسي لَهنـــتِ

لَهْــفَ قلبي!.. لهفـــةً لا تنتهي

كنت دنيايَ جميعاً.. كيف كنتِ؟!

لا نـدري كيـف أعلنـتْ الحبيبـة انتهـاء العلاقـة. للحبيبـات طـرق متعـددّة تختلـف بـإختلاف الزمـان والمكان. كنتُ، ذات يوم، أزور مستوطنة للهنود الحمـر في ولاية " أريزونا". وكانت تقاليد القبيلة الهندية تعطي المرأة مكان الصدارة في كل علاقة. في الزواج وخـارج

الزواج. لـم يكن على المرأة التي تريـد أن تتخلّـص مـن رَجلها إلا أن تضع سـرج حصانـه علـى بـاب الخيمـة. ويضع الرجل السرج على الحصان ويذهب بلا رجعـة. أمّا في هذه الأيام فاعتقد أن الحبيبـات، في كـل مكـان، يكتفـين بـإغلاق جهـاز "الموبـايل". ويفهـم الرجـل المقصود، إن كان حراً تكفيه الاشارة. أيـام نـاجي لـم تكـن هنـاك خيـول ولا أجهـزة "موبـايل". أرجّـح أن العلاقة انتهت عبر رسالة. ونـاجي، شـأنه شـأن شـعراء زمانه، كان يولى الرسائل أهميّة كبرى. وقـد كتـب في الرسائل قصيدة أعدّها، رغم صغرها، واحدة من أروع القصائد في تاريخنا كلّه. هل تريدين أن تستمعي إليها ؟ حسناً! تقول قصيدة "رسائل محترقة"

ذوتْ الصُبابة ... وانطوتْ

وفرغت من الآمِهـــــــا

لكنني ألقــــى المنــــايا..

من بقايا جامِهـــــــــا

عادت إليّ الذكــــريات ..

بحشدها .. وزِحــــامها

في ليلـــــةٍ ليْلاءَ .. أرقنيَ

عصيبُ ظلامِهـــــــــا

هدأتْ رســـــــائل حُبّها

كالطفلِ في أحلامِهـــــا

فحلفتُ: لا رقـدتْ ! ولا

ذاقت شهىً منامِهـــــا !

أشعلتُ فيها النـــــار ..

ترعى في عزيز حطامِهـــا

تغتال قصة حُبّنــــــا

من بَدْئها... لختامِهـــــا

أحرقتُهـــا ... ورميتُ قلبي

في صميم ضُرامِهـــــا

وبكى الرمـــادُ الآدميّ..

على رماد غرامِهـــــا

آه! تلتمع الدموع في عينيـك! ألـم أقـل لـك أن الشـعر الحقيقـي هـو الـذي تجديـن نفسـك فيـه. ومـن الواضح أنك وجدت هنا شيئاً من روحك. وبكيتِ مع

الرماد الآدمي. عرفتُ هذه القصيدة، ياحلوتي، أولّ ما عرفتها، عن طريقي أستاذي الشاعر إبراهيم العريّض. كتب عنها مقالاً ثم أودعها كتاباً. وعشقت القصيدة منذ رأيتها. وعشقت الكتاب الذي يضم مختارات جميلة من الشعر العربي الحديث. هل تعرفين أننا في حاجة إلى المزيد من كتب المختارات الجميلة؟! لا نَود أن ندخل في اختصاص سادتنا الأكاديميين الفحول. فلنعدْ إلى صديقنا الذي يجابه، الآن، صدمة الفراق. لماذا جاء الفراق؟ السؤال أزلي. والجواب الأبدي عند العاشق: "هي السبب!" والجواب الأبديّ عند المعشوقة: "هو السبب!". كرامة ناجي تمنعه من الإعتراف أنها هجرته.لم يملك ناجي، الذي لم يكن مقاتلاً، شجاعة أبي فراس المقاتل الذى واجه "فاتنة الحيّ" بالحقيقة المُرّة: "معاذ اللّه! بل أنتِ لا الدهرُ!". ناجي، على العكس تماماً، يعلق المسؤلية في عنق الدهر. كل ما فعلته الحبيبة أنها لم تساعده على مواجهة الدهر الذي آذن بالفراق. كان ناجي مخلوقاً رقيقاً، أيتها المخلوقة الرقيقة. كان مِثال الرجل الجنتلمانْ. والرجال

الجنتلمانْ، بخلاف ذكور هـذه الأيـام لا يتعرضـون لامرأة، أيّ امرأةَ، بكلمـة قاسية، فما بـالك بالحبيبـة؟ كان ناجي فارساً رومانسياً يتلقّى الجراح من يد حبيبته وهـو يبتسـم. ويذكرّهـا بمـا كـان يـوم كـان الحـبّ في عنفوان طفولته:

كنتِ في برجٍ من النـور على
قمةٍ شاهقةٍ.. تغزو السحِـابـا
وأنا منــــكِ فـــراشٌ ذائبٌ
في لُجيْنٍ من رقيق الضْوء ذابـا
فَرِحٌ بالنور والنار معـــــــاً
طارّ للقمة محموماً ..وآبـــا
آب مـــن رحلتــــه محترقاً
وهو لا يألوكِ حُبّاً.. وعتـــابا

لا تكاد توجد حبيبة من حبيبات ناجي على هذه الارض. كـل امـرأة يعشـقها نـاجي تتحـوّل، بحتميـة تلقائيـة، إلى نجـم أو كوكـب. "وأنـت مثـل النجـم في المنتأى"، يقول ناجي لحبيبته. ويعجب حين تنزل الحبيبة

إلى أرضه:

هيهات أنسى دُرّة الأنجم

إليَّ من آفاقهــــا ترتمي

عندما تذهب الحبيبة يصرخ ناجي: "فيا نجوم الليل! لا نجم لي!". وعندما تقترب الحبيبة منه تعديه بنجوميتها فهما "نجمان في الظلماء منطلقان". وهذا المقطع، يا حلوتي الصغيرة، يلخّص موقف ناجي من كل نجمة عرفها. وكان ناجي مولعاً بالنجمات، نجمات المسرح ونجمات السينما.هل أنت نجمة، يا صغيرتي العذبة؟ لا يهمّ! سوف تكونين نجمة في عيون حبيبك، نجمة هي السماوات كلها، والشهب كلّها. كان ناجي يعشق نجمته البعيدة المتألّقة. أنظري إلى هذه الصورة الرائعة، وأوشك أن أقول المخيفة. (لا ضير! كل الصور الرائعة لا بد أن تكون مخيفة بعض الشيء . والقصائد الرائعة!) تصوّري هذه النجمة متربّعة فوق برج من الضياء. كم طول هذا البرج؟ مئات الأمتار، على أقل تقدير. وتصوّري هذا البرج شامخاً فوق قمّة

شاهقة. كم تبعد هذه القمة عن الأرض؟ آلاف الأمتار، على أقل تقدير. وتصوّري هذه القمة الشاهقة وهي تغزو السحاب. كم يبعد السحاب عن الأرض؟ ضاع الحساب!، كما يقول أهل " الفريق ". وتصوّري هذه النجمة هناك، فوق كل هذه الأضواء والأبعاد والآماد. وتصوّري شاعرنا العاشق. لم يجيء متقمصاً شكل عقاب. أو صقر. جاء على هيئة فراشة ضئيلة صغيرة. تصوّريه يتسلق البرج، ويتسوّر القمّة، ويقفز إلى السحاب. وتصوّريه وهو يغتسل في الضوء، ويرتعش وهو يلامس النار. وتصوّريه يهوي محترقاً وهو يردّد هذه الأبيات الجملية. وتصوّري نفسك، يا أميرتي الصغيرة، جالسة على عرش وثير، فوق برج من النور، على ذؤابة تلك القمة التي تمزّق السحاب. تُرى ماذا سوف يكون شعورك إزاء هذه الفراشة البشرية العاشقة؟ هل ستلاحظينها والأفق مليء بأسراب الطيور (والطائرات)؟ هل ستسمعين الأبيات الحزينة التي تردّدها الفراشة المحترقة، الرماد الآدمي الشاعر؟ لا تجيبي! لا تجيبي! أنت لا تعرفين الجواب. أنت لم

تعرفي تجربة كونية هائلة كهذه. لا تزالين طفلة ترتدي جسد امرأة شهية. وماذا حدث للفراشة البشرية بعد السقوط والاحتراق؟ إسمعي :

برئت نفسي من الحقد وَلَمْ
أُخفِ ضغْناً لك بين العَبَراتِ
إنّ يوماً واحداً أسعدني
جمع الأفراح طُرّاً من شتاتِ
وهو عمرٌ كاملٌ عشت به
كل أعمار الورى مجتمعاتِ
لست أنساك... وقد علّمتني
كيف يحيا رجلٌ فوْقَ الحياةِ

تأمّلي، يا أميرتي الحلوة، كيف يحبّ الشعراء الفرسان. لا حقد ولا ضغن. آه! الضغن المختفي بين العبرات. لو كنت رسّاماً لرسمت لوحة تحمل صورة هذه العبرات. إلاّ أنني كنت أفشل الطلبة في مادة الرسم. عبر تاريخي الدراسي كله. ونلتُ، ذات مرة، درجة صفر. وهذا إنجاز، لو تعلمين، عظيم. لا يهم.

هناك، كما قال الرسام المبدع نزار قبّاني، " الرسم بالكلمات ". وقد رسم نزار ذات يوم صورة لي. قال أنها تشبهني كثيراً. وقلتُ أنّها مجرد كاريكتير. لا يهمّ. الصورة تذكار غال من مبدع عظيم. فلنعد إلى المقطع. تأمّلي كيف يكتفي شاعرنا بتجربة يوم واحد. يوم سحريّ ساحر مسحور. تأمّلي كيف أصبح اليوم الواحد، الموعد اليتيم، تاريخاً للبشر أجمعين. معجزة الحب، أيتها الصغيرة الباحثة عن معجزة، هي أنه يحوّل يوّما واحداً إلى تجربة تختزن تجربة كل إنسان عاش ومات. كل إنسان! هل تلومين شاعرنا إذا قال أنه عاش " فوق الحياة " ؟ أرى الدموع تبرق في العينين السوداويتين. أعني العينين العسليّتين الغامقتين. ما لون عيْنيك؟ أنا أرى كل ألوان الدنيا في عينيك. لا ينبغي أن أتغزّل. ينبغي أن أتذكّر هذا الذي تتحدثين عنه طيلة الوقت. حدث، مرة، أن قلت أبياتاً فيها شيء من المشاعر التي يتحدّث عنها ناجي في هذا المقطع. هل تريدين أن تسمعيها؟ حسناً !

تركتِ من ظلمـــــات الليل أوديةً

تضمّ روحي.. وذئباً يرتدي جســـدي

تركتِ أشواكك الحمـــــراء في شفتي

تركتِ أطواقكِ السوداء حـــوْل يدي

تركتِ مــن كبريـــائي زهرةً ذبُلَـــتْ

فبعثرتها رياح اليأس في كَمَــــــدي

لكنني وخيال الحب في خَلَــــــدي

أقـــول: "لا زلتِ في دنيـا من الرُغدِ"

من جرّبَ الحُبّ.. لـم يقْدر على حسدِ

من عانقَ الحبَّ.. لـم يحْقد على أحــدِ

تريديـن القصـة الكامنـة وراء هـذه الأبيـات؟ قـد أرويها لك ذات يوم. أما الآن فلنعُدْ إلى نـاجي. الـذي يبكي، وينصح خبيبته الهاجرة بالضحك:

إفرحي ما شئتِ يا روحـي.. افرحي

أنشـــدي ما نقلته الطـــــير عنّي

إغنمــــي نَفْحَ الصَبا .. وانتقلـــي

في الصبـــا المراحِ من غُصْنٍ لغُصنِ

وعلـــى أيكـكِ ناغى كلّ مــن

مرَّ بالأيك.. ونادى كل خــــدنِ

لن يحبّوك كحبّي.. لن تـــــرى

ضاحكاً مثلي.. ولا حزناً كحــزني

شاعرنا يجنح في هذا المقطع، بعنـف، إلى البديـع، علـم المكيـاج الشـعري. في البيـت الأول نشـيد ومــع النشيد تجيء الطيور. وفي البيت الثاني مقابلة بين الصَبـا (النسيم) والصِبا (الشباب). والبيت الثـالث يجمـع بـين المناغاة والمنـاداة. وفي البيـت الرابـع يقـف الضحـك في مواجهـة البكـاء. لـو قـرأ ابـن المعـتزّ هـذا المقطـع لقـال لشاعرنا " لا فُض فوك !". وربّما أمر بملء فيه جوهـراً. إلا أن هـذا المقطـع، رغـم البديـع وابـن المعـتز، مقطــع انتقامي. ثأر الفارس العاشق. وياله من ثأر ناعم رقيـق. انتقامه تذكير، مجرّد تذكير، أنّـه يختلـف عـن الآخريـن. لـم يكن ناجي نجمـاً، يـا نجمـيَ البديعـة. حيـاة نـاجي اليومية كانت أبعد ما تكون عن البريق. وحياتـه العامـة كانت بيروقراطية روتينية." كان الدكتور ناجي موظفـاً

في مصلحة السكك الحديدية وفي وزارة الصحة وفي وزارة الأوقاف ثم اعتزل الخدمة الحكومية "[1]. على هذا النحو لخّصت جريدة الأهرام حياته في نعيه. ومع هذا فهو لا يريد لحبيبته أن تنسى أنها أمام شاعر موهوب، عاشق يختلف عن العشّاق الذين يمرّون بالأيك. وناجي يعشق كلمة الأيك. وغفر اللّه له هذه الكاف التي وضعها في المؤخّرة فلم يعد بوسع أحد أن يقول " أيككِ" إلا ويجيء الصوت شبيهاً بصوت دجاجة تكاكي. لا بأس! لكل جواد كبوة. ولكل بلبل نشاز. في هذا المقطع يوشك الفارس أن يتخلّى عن فروسيته. يوشك أن يقول لنجمته أنها أصبحت روضة مستباحة. يوشك أن يقول أنها أصبحت ترحّب بكل "خدن" (وأنت، بعد، تعرفين الآية الكريمة التي تتحدّث عن متّخذات الأخدان). يوشك أن يقول هذا كلّه، ولكنه لا يفعل. يقف عند حافة الهاوية. يكتفي بتذكيرها أنه وحده الرجل الحقيقي. وحده العاشق

---

١. انظر حسن توفيق : **إبراهيم ناجي: الأعمال الشعرية الكاملة** (القاهرة، المجلس الأولى للثقافة، ١٩٩٦)، ص٩٥.

الحقيقي. وحده الإنسان الحقيقي الذي يحمل ضحكات الإنسانية وأحزانها. ولا ينسى أن يضيف أنه وحدها الذي يستطيع أن يدخلها التاريخ:

يا كتاب الحسن ! جلّت آيةٌ
من جمالٍ.. وكمالٍ.. وشبابْ
زعموا أنّيَ قد خلّدتُها
بأغانيّ.. وألحاني العِذابْ
ما أنا شادٍ ولكن قارىءٌ
سوراً من ذلك الحُسنِ العُجابْ
لم أزل أقرأ حتّى (....)[1]
وجعلتُ الخلد عنوان الكتابْ

يمتشق شاعرنا، هنا، سلاح الفارس الشاعر، ويمشي مباهياً، مفاخراً، متحدّيا. يمتشق الشعر. لم يكن ناجي يملك المال. ولم يرزق الوسامة. ولم يحظ

١ . تتحدث الكلمة التي حذفتها عن السجود، والسجود لغير اللّه لا يجوز، حتى في القصائد عندما يكون المقصود، على الأرجح، السجود المجازي لا الفعلي.

بالجاه العريض. ولكنه ملك مالم يملكه أحد من الآخرين: القدرة على تحويل المرأة الفانية إلى شعر خالد. "زعموا" أن ناجي خلّدها. لم يقل ناجي أنه فعل هذا. قاله الآخرون. حسناً! قليل من التواضع يصلح الشعر. ولا يضّر بالأخلاق. حقيقة الأمر، بطبيعة الحال، أن الزعم جاء من الشاعر نفسه. وحقيقة الأمر أنه صادق في زعمه. لو لم يكن صادقاً هل كنت أحدّثك، الآن، عن امرأة ماتت قبل عقود؟ ولكن من هي هذه المرأة؟ هويّة هذه المرأة لغز عويص، أيتها الجميلة النقيّة. يحتاج الكشف عنها إلى مواهب كمواهب شيرلوك هولمز. وأنا لا أملك هذه المواهب. ولا أودّ أن أملكها. كثير من الباحثين يرون أن ناجي كان يتنقل بقلبه الظامىء وشعره المحترق من نجمة إلى نجمة. من "زوزو" إلى " زوزو". إلاّ أن الشاعر حسن توفيق، وهو عاشق كبير من عشّاق ناجي، يذهب عكس هذا المذهب. يؤمن أن ناجي لم يُحبّ إلاّ امرأة واحدة. واحدة فقط:

على المستوى الحياتي، كانت هناك حبيبة

واحدة هي التي اسمّيها " زهرة المستحيل "،
التي حرم منها طيلة حياته رغم أنها إحدى
قريباته، وعلى المستوى الإبداعي فإن هذه
الحبيبة وحدها هي التي ألهمت ناجي روائع
عديدة من بينها رائعة " الاطلال "[1]

إلا أن صالح جودت، الذي عرف ناجي وصادقه كما لم يعرفه حسن توفيق ويصادقه، يذهب إلى أن "الإطلال كانت عن "زوزو" ما. أما القصيدة التي نحن بصددها فيرى صالح جودت أنها، شأن قصائد ناجي الأخيرة كلها، عن "زازا". ومن هي " زازا"؟ يقول لنا صالح جودت:

" زازا " شابة وسيمة القسمات، أنيقة الروح،
تعشق الشعر قديمه وحديثه، وتحفظ الكثير
من هذا وذاك، ولم تكن ذات مطامع كمطامع
الغانيات، فهي المرأة الوحيدة التي أحبت الشاعر.
كل همها في الحياة أن تكون إلى جانب

١. حسن توفيق، المرجع السابق، ص٢٢.

شاعر يحبهـــــا وتحبّه. وقد لعبت "زازا" دوراً
في حياة ثلاثة من الشعراء، قبل شاعرنا، كلهم
جهير الصوت، وأثير عند الناس، ثم انتهت إلى
شاعرنا الأخير فـوجدت عنده ما لـم تجده عند
الأولين من تفـــرغ لها. وهــام بها إلى حد أنها
كانت كل همّه وشغله أكثـــر اليوم من مطلعه
إلى مطلع اليوم الذي يليه. ثم وجدت عنده ما لم
تجده عن غيره من نزعة الروح دون الجسد. وأحسب
أنها، وقد عرفتها عن كثب، كـانت لوناً فريداً
من النساء لا تستهـــــــــويه نزعة الجسد [١]

أنا، أيتها الغالية الصغيرة، أعرف صــالح جـودت.
أعـني كنـت أعرفـه. كـان ذلـك قبـل أن تولـدي بفـترة
طويلة. أرسلتُ له قصيدة، وأنا طالب في الثانوية، ولـم
ينشرها. كان يحرر صفحة أدبية في " المصـوّر "، أشـهر
مجلة عربية أيامهـــا، وكان يتوّج الصفحة بإطار يحمـــل

---

١. انظر مقالة سامي الكيالي في **ديوان ابراهيـم نـاجي** (بيروت: دار العودة، ١٩٨٨) ص ص. ٣٥٧-٣٥٨.

قصيدة قصيرة لشاعر كبير. يبدو أنه قرّر أنه لا يحق لطالب في الثانوية أن يجلس مع المشاهير. كتبت له رسالة أخرى باسم مستعار. زعمتُ فيها أن لي العديد من الروايات المطبوعة. وأرفقتُ بالرسالة قصيدة. سرعان ما وجدتها منشورة. واستمر ينشر لي بانتظام. ثم انتقلتُ إلى القاهرة أدرس الحقوق. وزرته في مكتبه في "المصوّر". أخبرته "بالمقلب" الذي شربه. لم يغضب. ولم ينزعج. بدأ ينشر لي باسمي الحقيقي. لا يزال لصالح جودت مكان خاص في قلبي. كان أول من قدّمني للناس. كنت أزوره ثلاث مرات في السنة. وكان يفتح لي مكتبه وصدره. كان شاعراً مشهوراً وصحفياً خطيراً وكنت طالباً جامعياً مغموراً أُصيبَ بفيروس الشعر. ومع ذلك كان يتعامل معي بلا فوقية. على قدم المساواة. ينشدني وأنشده. ويُصلح أغلاطي برقّة ما بعدها رقة. أنشدته مرة مقطوعة انتهت بهذا الشطر: " أين جلال الفنّ من غانيةْ ؟!" ابتسم وقال: "عندما أقول" أين فلان منك؟"، فمعنى هذا أنك أعظم من فلان " ". وفهمت. وأصلحت الشطر ليصبح " يا

ضيعة الأشعار في غانية ". أجدني منحازاً إلى صالح جودت. إلى نظرية "زازا". ومع ذلك لا أستطيع أن أنسى ما قاله حسن توفيق عن " زهرة المستحيل". حقيقة الأمر، أيتها الحلوة الناعسة، أنك تشعرين أمام قصائد ناجي كلها أن الملهمة واحدة لا تتغيّر، الملهمة كما يقول حسن توفيق بحقّ هي " المثال الذي خلقته تصوّرات شاعر مثالي للمرأة التي ينشدها، بكل ما يخلع عليها من صفات ملائكية تجعلها دوماً مرفرفة في محرابها العلوي بعيداً عن البشر الفانين" [1]. ملاحظة حسن توفيق عن المرأة الملائكية غاية في الدقة. كل امرأة يحبها ناجي تتحول، تلقائياً، إلى مَلَك. في قصيدة بعد قصيدة نلتقي بمَلَك ناجي العجيب. في قصيدة "المآب" نجد " ملكاً عليلاً ". وهذا الملك يتحول في قصيدة "ساعة لقاء" إلى "معجزة الحسن". وفي قصيدة "الشك" يتساءل ناجي بحيرة:

ما يفعل الملك الطهور بعالمٍ

فانٍ.. وأيام كلمع سرابِ؟

---

١. حسن توفيق، المرجع السابق، ص١٦.

و" الملك الغالي" في قصيدة "رحلة" يصبح "حارس" الشاعر. و"سمراء المحفل"، تتحول في القصيدة التي تحمل اسمها، إلى :

مَلَكي ! ومحرابي !

وقدس فؤاديَ المتبَتّلِ

وفي قصيدة " وداع المريض " يتحدث ناجي عن " المَلَك الموسُدّ بيننا " (لم يخطر ببال ناجي أن الملائكة لا يمرضون!) ومنيرة توفيق، والله أعلم من هي منيرة توفيق تتحول إلى " ذلك الملك الكريم السامي ". أعتقد أن هذا الهوس الملائكي يحلّ لنا لغز الملهمة. كان صالح جودت على حق. وحسن توفيق على حق. في كل قصيدة من قصائد ناجي إمرأتان، المرأة البشرية المكوّنة من طين وماء، "زازا" أو " زوزو"، والمرأة الملائكية التي تعيش فوق السحب، " زهرة المستحيل ". فلنعد، بعد هذه الهجمة العدوانية على حدود سدنة النقد العظام، إلى " زازا". يبدو أن الاسم حركي، كما يقول أعضاء المنظمّات السّرية. بالمناسبة، ما اسمك

انت؟! " ناتاشا "؟! هذا اسم روسي، أيتها العربية الجميلة. لنعتبره، بدوره، اسماً حركياً. و" ماذا في الاسم؟"، كما قال شكسبير العظيم. " ناتاشا ! " لنعُد إلى صاحبنا. ولنستمع إليه يواصل إنتقامه الرومانسي العجيب :

يا إبنة الأصداف! والبحر أبي
قبل أن يلقى بي الموج هنا
سائلي الأعماق عن غوّاصها
أنا صيّادُ لآليها... أنا!
إنْ هجرنا القاع الليل إلى
قمم شُمٍ.. وعشنا في السنا
فبنا الأمواج والصخرُ.. وما
برح العاصف في أعماقنا

عاد ناجي إلى البديع، يطفو على بحره هذه المرّة. القطع مليء بما يسمّيه سادتنا النقاد الفرنجة "الكونتراست". الأعماق تصادم القمم. واللآلىء تقابل النجوم والليل يشاكس السنا. يقول شاعرنا لحسنائه،

برقّته النادرة، أنه لا يقلّ في عالـم الجمال أصالة عنها، إن لـم يزد. إذا كانت هي نجمة متألقـة في السـماوات فإنـه صياد اللآلىء المتألقة في أعماق البحـار. إذا كـانت هـي تسكن القمم فهو بطـل الأغـوار. بعبـارة أخـرى، يقـول ناجي " لزازا"، أو "لزهرة المستحيل "، " إذا كنتِ أنــت السماء بجمالها، فأنا البحــر بعظمتـه ". ويـا لهـذا الشـاعر النحيـل العليـل الـذي يحمـل في روحـه المتداعيـة أمــواج البحـار وصخورهـا وعواصفهـا. هــل تريديــن اعترافـاً صغـيراً، يـا "ناتاشـا" الصغـيرة؟ كُنـت ذات يـوم أواجـه موقفاً لا يختلف كثـيراً عـن موقـف نـاجي. التفـاصيل لا تهمّ. القصة المألوفه " جُنِنا بليلـى وهـي جُنّـت بغيرنـا ". كان ذلك قبــل زمـن بعيـد بعيـد. كنـتُ أحـبّ جـارتي الحسناء. وكانت تحب إنساناً غيري. ولجأتُ إلى ســلاح الشعر. امتشقته كما امتشقه ناجي، وكتبت لها:

هل يستطيعُ أن يريكِ في القفار روضتينْ ؟

هي يستطيع أن يحيل مُقلتيكِ نجمتيْن ؟

هل يستطيع أن يصوغ في هواك كلِمتينْ ؟

من الذي يقول للحروف : " طيري كالطيور

ورفرفي بقرب خصلتين " ؟

ومن يرقرق الربيع والخمورْ

قصيدتيْن ؟

أنا الذي حفرتُ في المساءْ

لّما قدمتِ بسمتينْ

أنا الذي أوغلت في السماءْ

على جناح نظرتينْ

وعدتُ أحملُ القمرْ

إليكِ.. فوق غيمتينْ

أنا! سلي عاشقك البديعْ

هل يستطيع ؟!

أتريدين اعترافاً آخر؟ فضّلتْ عاشقها البديع الذي لم يستطع أن يصوغ في هواها كلمتين عليّ. يكفي حديثاً عني! أود الحديث عنك. أخبريني ما الذي جعلك تحبّين هذا الذي تقول أنك تحبينه؟ "الكارزما"! آه ! " الكارزما "!، كيف أصبحت لغتنا العربية الجميلة، أيتها العربية الجميلة، فريسة سهلة لذئب الغزو

الثقافي؟ " الكارزما " كلمة يوجد في لغتنا ما يشابهها، ولا أقول يترجمها، " الجاذبية". والجاذبية أجناس، وإن كانت تحتوي، جميعها، على شيء من الانجذاب الجسدي. يحمرّ وجهك. أعتذر! نحن الآن في مجال التعريف. وفي عصر الشفافية. كل " كارزما "، أيتها الحسناء البريئة، ترتبط بشوق الجسد إلى الجسد (شعر الجسدان أم لم يشعرا). وناجي، أيتها الرائعة "الكارزماتية "، كان يفتقر إلى " الكارزما ". ولعلّ افتقاره إليها هو ما أدّى إلى رسوبه الدائم في الحب، ونجاحه المستمرّ في الشعر. كان الطبيب، بعد كل حالة حب، في حالة لا يحسده عليها مرضاه:

عاصفٌ عاتٍ.. تمنّيتِ له

هدأةً.. أين له ما تطلبينْ ؟

اسألي عن مُقلةٍ مخلصةٍ

خبأت رسمك في جفن أمينْ

سهرتْ ترعاك مهما لقيتْ

في سبيل العهد.. والودِّ المكينْ

أقسمتْ.. لا تطلب النوم.. ولا
تطلب الرحمة منه.. بعض حينْ

وهذه، يا صغيرتي الشاعرية، أبيات نثرية أخرى، تنقذها من جديد، نبرة الصدق. أمامك صورة العربي العاشق الساهر عبر العصور (ولا يسهر إلاّ لصّ أو عاشق، كما قال ناقد جاهلي). " سل في الظلام أخاك البدر عن سهري". أرقٌ على أرقٌ ومثليَ يأرقُ". "قولي لطيفك ينثني .. عن مضجعي.. وقت المنام " يا ليل ظلّ! أو لا تكل !.. لا بد لي أن أسهرك ! ". كان ناجي مولعاً بالسهر. ولم تكن كل سهراته شقيّة. هل تريدين أن تعرفي ما كان يدور في بعض سهراته؟ يا للفضول الأنثوي! اسمعي ما يقوله صديقه سامي الكيالي:

وليالي ناجي من أمتع الليالي.. وكانت ليلة الجمعة فرصته الوحيدة للسهر حتى الصباح، يعيشُ مع خلّص اصدقائه، من مقهى إلى مقهى، ومن تياترو إلى تياترو،

ومن مرقص إلى آخر، فتمرّ الليلة على امتع ما يكون السهر، وقد اتيح لي، حين أكون في القاهرة. أن أعايشه بعض تلك الليالي، وأسهر معه تلك السهرات المشعّة بالأضواء، فأحسّ برعشات الفن والأدب تثيره وتغمر كل خالجة من خوالج ذاته، ولا سيما حين يتراىء له الجمال المطلق مجسّدا في اطار من الفن الذي يثيره، فلا يتمالك عن البوح من هواجسه الدفينة، أو نزعاته اليقظة، ولا شك أن أكثر قصائده الوجدية هي انتاج تلك الليالي التي يقص فيها بصدق قصص أشواقه ومواعيده[1]

من " مقهى إلى مقهى ومن تياترو إلى تياترو " ؟!

ليس هذا حال العاشقين المُعذّبين ! هل يجوز لنا أن نقول لسامي الكيالي ما قاله النواسيّ الساهر: " عرفت شيئاً.. وغابت عنك أشياء "؟ هل بوسعنا أن نقول

١. سامي الكيالي، مرجع سابق، صص ٣٦١-٣٦٢

أصدقاء ناجي كانوا يعرفون ما يدور ليلة الجمعة ولا يعرفون ما يجيء به صباحها؟ ناجي يحدثنا عما يعانيه بعد أن تزول السكرة وتجيء الفِكرة:

أصبحتُ يــوَمَ الجُمُعَةْ

ذا غــربَةٍ.. ما أضيْعه!

منفرداً لا خـــلّ لي

وأين مَنْ قلبي معــهْ ؟

ضاقت بيَ الأرض فما

في فسحة الكوْن سعــةْ

اقطع يومي مبطئـــاً

كأنني لن أقطعـــهْ

ماذا كنتِ تقولين عن هذا الذي أشعر بالغيرة منه؟ ألا يوجد لديه شيء سوى " الكارزما "؟ موهبة؟ أي موهبة ؟ الرسم؟ التمثيل؟ الغناء؟ الرقص؟ فضول رجالي يحرقني! هل صاحبك فنّان، من نوع أو آخر؟ ناجي، كما قلت لك، كان مولعاً بالفنّانات. لماذا؟ أعتقد أن السبب هو " الكارزما". الفنانات الفاتنات

يسبحن فوق محيط من " الكارزما ". آه! كدت أنسى.
مـاذا حـدث " لـزازا ؟ " هـل ملّـتْ عاشـقها، عاشــق
السهر؟ الجواب عند ناجي:

بعدما غــــــوّر نجمي ودليلي
مامسيرى ..دون تربٍ أو خليلِ؟
في طريق الشوك والصخر.. وفي
شُعَبِ الارهـاق .. والكدِّ الوبيلِ
الغريبان عليهـــا إلتقيــــــا
يستعينان على الدرب الطــويلِ
ما إنتفاعي بحياتي .. بعدمــــــا
ساقـــك التيّار في غير سبيلي ؟

هـا هـي ذى بـراءة "زازا" تُعلـن علـى المـلأ، مــرة
أخرى. التيار الذي جرفها عن سبيله هو المجرم الحقيقــي.
هنـا، أيتهـا الأمـيرة الصغـيرة الناعســة، تعريــف مبتكــر
للحـب: الحُبّ هـو الشـيء الـذي يعينـك علـى السـير في
الدرب الطويل. والدرب الطويل مخيف بـالحبّ وبدونـه.
ولكنـه حـين يخلـو مـن الحــب يصبـح دربـاً في الجحيـم.

الحب، في أحوله كلّها، سعادة مؤلمة (أو ألم سعيد).

وكثيراً ما يخنق الأمل السعادة خنقاً. وقديماً قال عاشق متألم:

فإنيّ رأيت الحُبَّ في الصدر والأذى
إذا اجتمعا.. لا يلبث الحبُ يَذهبُ

حذار، إذن، حذار! اسمعي ما قاله شاعر قديم آخر:

هو الحُبّ فاسلم بالحشا .. ما الهوى سَهْلُ
وما اختــــــــاره مضنى به .. وله عقلُ

حتّى المتنبي العجيب، الذي لم يتجاوز حبه حدود ذاته إلا عبْر ومضات خاطفة نادرة، قال:

مما أضرّ بأهل العشـــــــق .. أنّهمُ
هووا .. وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

بمفهوم المخالفة، يا حلوتي، يزعم المتنبي أن العشاق لو كانوا أذكياء وتعمقوا في شئون الدنيا لما

عشقوا. ألا زلتِ مُصرّة على الحب؟ وعلى الجنون؟ وعلى العذاب؟ هذا ما يفعله كل عاشق، وكل عاشقة، في البداية. بقرب الحبيب يصبح الجنون عقلاً، والعقل جنوناً. وكلّ ما يبعدك عن الحبيب جنون. وكل ما يدفعك إلى أحضان الحبيب عقل. كلّ هذا في البداية. ثم يجيء الفراق. دائماً وأبداً، وينتهي الحب بالفراق. الحب الذي يقود إلى قصّة "بختامها يتزوج الأبطال" وينتجان جيوشاً من الأولاد والأحفاد لا يزال يوجد، بفضل اللّه، في كل مكان. إلاّ دواوين الشعراء. والمسرحيات. والسيمفونيات. وأنت، أيتها الطفلة الشهية، لا زالت في أول البداية: تذكري النهاية الفاجعة:

يا لجهلِ إثنيْن أقـــــدارهما
آه ! ياليتهما قد عَـــــرِفا
ما الذي نصنع بالعيـــــش إذا
ما صحا القلبُ غريباً ..وغفا؟
ما الذي نصنع بالعيـــــش إذا
ما الطريقان عليه إختلفـــــا؟

ما الذي نصنـــــع بالعيش إذا

صار تذكاراً.. فأمـــسى أسفا؟

خلاصة القصة: لو عرفا لّما أحبّا. هذا هـو الجهـل الأبدي الأزلي الـذي يـلازم أهـل العشـق. والتكـرار في هذا المقطـع جميـل، أيتهـا الجميلـة غـير المتكـررّة. اللغـة العربيّة لا تضيق بالتكرار، بخلاف لغات أخرى يتحوّل فيهـا التكـرار، بتلقائيـة محتومـة، إلى سُـخْف مُضحـك. "أحبك!". تـأمّلي كلمـة " أحبّـك!". ألا تصبـح أجمـل كُلّمـا كـررّت؟ " أحبّــك!". "أحبــك!" "أحبــك!" " أحبّـك!" ؟ عفـواً! عفـواً! لــم أكـن أقصـدك أنــت. لا تسيىء الظن. كنتُ أتحدّث عن روعة التكرار. وكنتُ، قبل ذلك، أحذرّك. أحذري، أيتها البريئة الحلوة، مجـيء اليـوم الـذي يشـهد ذهـاب الحـــب وقـدوم التذكــار. وأحذري، أكثر وأكثر، مجيء المساء الذي يشهد ذهاب التذكار وقدوم الأسف. عندها، سوف تتمنـين لـو لــم تعرفي الحب، تلك الرحلـة البدائيـة الضاربـة في أعمـاق الهذيان. عندها سوف تستطيعين، بسهولة، أن تفهمــي

هذا المقطع:

عندما تقفز دارٌ من رفـــــاقِ
وتحُسّ السُمّ في كأسٍ وســـاقِ
عندما يكشفُ بؤسٌ وجهـــــه
سافر اللعنةِ... مفقود الخـــلاقِ
عندما تمسي بظـــلّ عالقـــــاً
ويخيط الوهم.. مَشدود الوثـاقِ
يا فؤادي ! انظر! وفكرٌ! وأفَق!
أيُّ قيدٍ لك الأحباب بـــــاقِ

أدرك شـاعرنا، الآن ،انـه مُعلّـق في ظـل زائـل، مربوط بخيوط الوهم، وهي كخيوط العنكبوت أو هى. الآن! بعد خراب البصرة! الآن يطلب ناجي مـن فـؤاده أن ينظـر (المكـان الخـالي)، وأن يفكّـر (في الحبيبـة الـتي ذهبت بلا عـودة)، وأن يفيـق (مـن خمـر العشـق ومـن خُماره). ماذا حدث للربيع الذي وُلِد على هجير القفر المجدب؟ وماذا حدث للدُنيا التي أحبهـا الشـاعر؟ وأيـن ذهب الناس الذين علّمة الحب أن يحبهم جميعاً؟ من أين

جاء البؤس الكريه؟ ومن أين أقبل الساقي بكؤوس القسم؟ ألم أقل لك، أيتها الحالمة الصغيرة، أن نهاية الحب فاجعة؟ لا يهمّك؟! لا بأس! لا زلتِ طفلة، ولا زال بوسعك تحمل الصدمات. ولكن ناجي لم يكن، أيامها، طفلاً. ولا شابّاً. كان كهلاً بائساً من الداخل والخارج. انظري هذه اللوحة التي رسمها صديقه إبراهيم المصري:

وتحدّق إليه فترى رجلاً هزيلاً
متوسط القامة منكمش الأعضاء،
أصلع مُقدمة الرأس، ناعس العينين..
.. مديد الذّقن، يمشي وكأنّه يتعثر،
يصمت وكأنه غير موجود. يقبع في ركن
من القهوة وغليونة في فمه وكأن سنه
من النوم قد استغرقته. ثم يتكلم بغتة
ويفيض، ولا يفتأ يتحرك، وينفث
ويلوّح بذراعيه تلويحاً عصبياً متداركاً
فتحس لفورك رحابة نفسه واضطرابها
وضيقها بما تحمل.[1]

١. سامي الكيالي، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

رغم مجاملة الصديق الواضحة جداً تستطيعين أن تتبيّني ملامح أبعد ما تكون، في مجملها وتفاصيلها، عن الجاذبية. "ناتاشا!" هل تسمحين لي بسؤال شخصي؟ هل تستطيعن أن تحبّي رجلاً يشبه ناجي؟ أجيبي!، أيتها الأميرة الصغيرة التي ترسل شعرها فينساب على الارض ثم ينساب و كأنّه النيل الخالد. أجيبي!، أيتها الأميرة الصغيرة التي تحمل شفاهها كلّ أسرار التربة السمراء الغنية منذ عهد ذلك الأمير الفرعوني الوسيم الذي أرسل صقره يبحث عن فلاّحة حسناء (القصة التي تحولت، فيما بعد، إلى "سندريلا"، كما تعرفين). أسألك ! هل تستطيعن أن تحبّي رجلاً يشبه ناجي؟! لا تكذبي! لا أظن. لا! لم أركما معاً، ولكن لا تكذبي. أحسب أن صاحبك من طراز عمر الشريف. مجرد مداعبة! حتىّ عمر الشريف أصبح كهلاً. ومع ذلك لا يزال يحتفظ بشيء من "الكارزما" الغابرة. كان شاباً وسيماً، وأصبح كهلاً وسيماً. ناجي لم يكن يشبه عمر الشريف ولكنه كان صادقاً ورائعاً ومؤثراً وهو يقول:

كــلُّ جَدٍّ عَبَثٌ ... والدهرُ ساخرْ

وخبــــيءُ السّرَ للعينينِ ظــاهرْ

أدعيّ أني مقيم.. وغــــــــداً

ركبى المُضنى إلى الصحراء سائرْ

عندما صافحتُ خانتني يـــــدي

ووشى خافٍ من الأشجان سـافِرْ

كذبتْ كفٌّ على أطرافهـــــــا

رعشة البعد.. وإحساس المسافِرْ

هذا موضع من مواضع البكـاء في الشـعر. فلنبـك قليلاً، أنتِ وأنا. أبكي أنا على نـاجي. وتبكـين أنـت. خوف الفراق قبل قدومه. هـل قـال أحـد لنـاجي بعـد سفره: "هنا قلب نبيل ينفطر الآن. نم نومة هادئـة أيهـا الأمير الحلوّ" ؟ هل قالت له امرأة ما قالته جوليـت عـن روميـو: "وعنـد موتـه. خـذوه. واجعلـوا منـه نجومـاً صغيرة. وسـوف يجعـل وجـه المسـاء غايـة في الجمـال. فيعشق العالـم الليل. ولا يلقي بالاً للشمس الطالعة" ؟

كل مرّة أقرأ فيها مقطع ناجي هذا، وأحسبني قرأته أكثر من ألف مرّة، أحس أن وحشاً خرافياً مسعوراً ينهشني من الداخل. السّر الخبيء/ الظاهر. العاشق المقيم/ المسافر. الركب المضي المرتحل إلى الصحراء. صحراء الأمام. الصحراء، هنا، رمز الموت، أيتها الطفلة المليئة بالحياة. كان ناجي، الذي ولد بين الحدائق، مسكوناً بالخوف من الصحراء. في قصيدة بعد قصيدة بعد قصيدة تظهر الصحراء قطعة من الهول.

اسمعيه يتحدث عن "السراب في الصحراء":

السراب الخؤون والصحراءُ

والحيارى المشرُدّون... الظمِاءُ

وليالٍ في اثرهن ليال

سنةٌ أُقفرتْ .. وأخرى خَلاء

قلَّ زادي بها وشحَّ الماءُ

وتولّى الرفاق والخلصاء

واسمعيه يقول في قصيدة " العودة" :

أيهــا الوكر! إذا طار الأليفْ

لا يـرى الآخر معنى للَسَماءْ

ويرى الأيام صُفراً كالخريفْ

نائحاتٍ .. كرياح الصَحَراءْ

واسمعي هذا الوصف المفزع للصحـراء في قصيـدة "أطلال" (وهي غير الأطلال التي اشتهرت بسبب بنت إبراهيم):

أمهــــلْ فؤادي ساعةً.. ريثما

أخلعُ عن قلبي سراب الضلالْ

فهـــــذه الصحراء عريانةٌ

ممتدةٌ.. خـــــانقةٌ.. كالملالْ

خليعة الطبع.. على كثبهــــا

عربدة الريح... وكفرُ الرِمـالْ

لـم يسبق أحد نـاجي إلى هـذا الوصـف الغريـب للصحـراء: خلاعـة الطبـع. ولا أتوقّـع أن يشـابهه فيــه أحـد. حسـناً! لنعـد إلى مقطعنـا الدامـع. تـأمّلي هـــذه

الصورة التي تقتل قتلاً: الكفّ التي تكذب لأنها تحمل "رعشة البعد .. وإحساس المسافر". وإحساس المسافرَ، يا غاليتي الصغيرة، ملحمة صغيرة. أستطيع، بسهولة، أن اكتب كتاباً ضخماً إسمه "إحساس المسافر". تصوّري حالك ليلة السفر، الأرق. القلق. التفكير المستمر في الرحلة. جمع الحقائب. عشرات الأشياء الصغيرة. وهذا كله في سفر ممتع. فكيف بالسفر الأكبر؟ هذا حديث موجع أيتها الصغيرة المبتسمة. حدثيني أنت الآن. كنت، إذن، تدفنين- آسف! تضعين!- رأسكِ في صدره وتنتفضين كذلك العصفور الشهير الذي بلّله القطر منذ قرون، ولا زال ينتفض؟ وتهمسين؟ ماذا كنت تقولين؟ حسناً ! لا تجيبي ! كيف كان شعورك؟ مزيج من السعادة المجنونة والجنون العاقل؟ الشعور المعتاد في أول العشق. وماذا كان يفعل هو؟ يبكي؟ يبكي؟! ولماذا يبكي؟ فرحاً أو خوفاً؟ لا تعرفين؟ لو كان صاحبك شاعراً لأنشدك في تلك اللحظات الذهبية ما قاله ناجي، ذات يوم، لطفلة جميلة مثلك:

نضَبتْ رحمـــــة الوجود جميعاً

وبك الرحمةُ التي ليـــس تنَضبْ

وإذا ضاقت السمـــاءُ بشجْوى

فالسماءُ التي بعينيكِ أرحـــبْ

كم تمنيتُ والصـــدور تجافيني..

وتزوُّر.. والوجــــــود تقّطبْ

كم تمنيت صدرك البر يرتـــاح

على خفقه الطريد المعـــــذّبْ

هات! وسدنَى الحنـــانَ عليه

جسدي متعبٌ ...وروحـي مُتعبْ

إلا أن صاحبك ليس شاعراً. ولم يقل شيئاً. إكتفى بالبكاء. أنا أعدّ البكاء فضيلة في الرجال بخلاف ما يراه الكثيرون. لن تعدمى خيراً من رجل يبكي. لم تخبريني لماذا كان يبكي. الأرجح أنه كان يبكي خوفاً. الأرجح أن صاحبك يعرف أن العشق نافذة مفتوحة على الشقاء. وهو يفضّل السعادة. تذكريّ أن أهل "الكارزما" يصعب عليهم التعامل مع الحب الحقيقي

(ولهذا يكثر الزواج والطلاق بين النجوم .. ذكوراً وإناثاً). أهل " الكارزما" يجيدون التعامل مع الإعجاب يمنحونه بسخاء. ويتلقّونه بسخاء أكبر والإعجاب جزء يسير جداً من منظومة الحب. جزء لا يكاد يُذكر. وقضية الحب غير قضية الإعجاب. بدأتِ تغضبين؟! حسناً! فلنعُدْ إلى صديقنا ناجي:

يا دياراً يؤمُها من سُحُبٍ
وغيومٍ .. وضبابٌ أُفقْ غَدْ
كل نبتٍ عبقريٍّ أطلعتْ
جعلت منه طعاماً للحَسَدْ
أخلف الميثاق مَنْ كان بها
كلّ آمالي.. فلم يَبقَ أحَدْ
ضاع عمرُ وحصادُ ... وغدا
من هشيمٍ كلّ ما كنت أُعدْ

ماذا يحدث هنا الآن؟ ما هذه الأطلال التي انتصبت. أمامنا. فجأة؟ وما قصة الحسد؟ كل شاعر، أيتها الفاتنة المحسودة، يفترسه هاجس الحسد. لو ألّفت

كتاباً اسمه " عذاب الروح والجسد. في ما قيل من شعر في الحسد" لجاء الكتاب في عدة مجلّدات ضخمة. وما السبب في هوس الشعراء بالحسد، أو هوس الحسد بالشعراء؟ لا أعرف السبب. ولا يعرفه علماء النفس. لو كان هؤلاء يعرفون شيئاً لما قال بعضهم في دراسة عن المبدعين أن الشعراء أقل الناس جنوناً. يفوقهم في الاضطراب النفسي والعقلي الروائيون وكتاب المسرح. لماذا يتصور ناجي نفسه طعاماً للحسد، ولم ينافسه أحد على بلاط سيف الدولة أو الملك فاروق الأول؟ الجواب، هذه المرة، لا يأتي من داخل القصيدة. يأتي من خارجها. هل تريدين أن تعرفي الجواب؟ حسناً! يقول لنا الشاعر حسن توفيق، عاشق ناجي الذي سبق أن حدثنا عن " زهرة المستحيل "، أن قصيدة " ظلام " نُشرتْ لأول مرّة في مجلة الثقافة في يناير ١٩٥٣. ثم أعيد نشرها في ديوان " الطائر الجريح "، الذي صدر سنة ١٩٥٧ بعد وفاة ناجي بثلاث سنوات. ضمّت القصيدة الأصلية مقطعاً لم يجىء في القصيدة التي ظهرت في الديوان، هو:

يا فـــؤادي! لا تَلمُني! إخْوتي
أفسـدوا القُربى.. وأميّ جهلتني
أسفـــــرتْ عن خُلُقٍ مستنكرٍ
أوجةٌ ناكـــرةٌ ... قد أنكرتني
لا تخلني حين أمضـــــي راحلاً
خفّ حملي من همــوم أوقرتني
إن همي أنني بعد النـــــوى
يائسٌ أحمــل همّي فوق متني[1]

مـا هـذا المقطـع النـثري العجيـب الـذي يذكرنـا بناكر ونكير؟ ومن أين جاء؟ يقول لنا حسن توفيق:

وفي تقــــديـري أن هـذه المقطوعة
المحذوفة تعكــــــس حـالة ناجي بعد
ان أُخرج من وظيفتـــــه بإعتباره طبيباً
غير منتج خلال ما سمـــى بحملة التطهير
في بدايات ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢،
فقد تسبب إخراجه في محنة نفسية قاسية

١. حسن توفيق، مرجع سابق، ص ٤٦٥.

كان ينفسّ عنها بالبكاء أمام أصدقائه [1]

طبيب غير منتج؟! فليكن! الأطباء غير المنتجين لا يقتلون أحداً ثم يدفنون أخطاءهم. وهل اكتشفت لجان التطهير أن البيروقراطية التي تمتد إلى أيام الفراعنة منتجة بأسرها ،بيروقراطياً بيروقراطياً، باستثناء شاعرنا غير المنتج؟ الثورات، أيتها الوديعة المسالمة، تأكل أبناءها. وقد تأكل شعراءها. وغفر الله لقادة ثورة يوليو تلك الفكرة البائسة: لجان التطهير. وغفر الله لهذه اللجان عملها البعيد عن الطهر. تدركين الآن، يا عاشقة الشعر، أن فهمنا للعمل الشعري يزداد عمقاً إذا أدركنا كيف ولد. الشاعر لم يمُت نهائياً، والنص ليس دولة كاملة الاستقلال، مع احترامنا لسادتنا النقاد البنيويين. لا تعرفين من هم النقاد البنيويون؟ هذا حديث يطول، ولا طائل وراءه. يكفي أن تعرفي أن للقصيده داخلاً (النص نفسه) وخارجا (كل الظروف التي اكتنفت كتابة النص). والقصيدة الرائعة تكتفي بداخلها عن

١. مرجع سابق، ص ٤٦٦.

خارجها. ومعرفة الخارج قد تزيد في جمال القصيدة الجميلة، ولكنها لا تسعف القصيدة القبيحة (ولا شيء أقبح من قصيدة قبيحة!). أزمة ناجي النفسية، إذن هي التي أمتزجت بالإحباط الذي خلّفه موت الحب لتنتج لنا صوراً جنائزية متلاحقة:

قُمْ بنا! والكونُ جهمٌ كالدُجى
نتلمسْ من جحيمٍ مخرجا
وانجُ منه ببقايا رَمَقٍ
أو طعامٍ .. وقليلٌ مَنْ نجا
لا تُدر رأياً به .. أضيعُ مَنْ
في لظاه مستعينٌ بالحجا
وأسأل الرحمن أن يصلح
عهداً كسيحاً.. وزمانا أعرجا

اللّهم آمين! وسامح اللّه ناجي على بيته الأخير الكسيح الأعرج. وسامح اللّه الذين حوّلوا شاعرنا من بلبل يصدح إلى نادبة تعول. ناجي، الذي نعرفه، أصبح فجأة، كافكا يمطرنا بمشاهد جهنمية تتوالى وتتسابق.

ولـم هذا اليأس الذي يبتلع كل شيء؟ حتى قـرار لجنـة التطهير غير الطاهرة لا يُبرّر كل هذا القنوط. الشـعراء. يا أميرتي الصغيرة مزاجيـون جـداً (مـع إحـترامي لكـل الدراسات النفسية). يحبّون فيصبح العالـم جنة. تذهـب الحبيبة فيقبـل الجحيـم الـذي يوشـك أن يحـرق أحـرف القصيدة. هل أخفتك؟ أعتــذر ! كثـيراً مـا أنسـى أنـك تتعاملين ،لأول مرة، مـع هـذا السـاحر الوسـيم اللئيـم. ومن هو هذا الساحر؟ الحُـبّ، بطبيعـة الحـال. تعرفـين، لأول مرة، كيف تبرد الأطـراف، وتجـفّ الكلمـات في الحلق. وتصطك الركبتان. تعرفـين، لأول مـرة، كيـف يصبح اسـم الحبيـب سمفونيـة عاصفـة. تشـعرين، لأول مرة، بأنوثتك تصحـو وتحـاول الإنفـلات مـن عروقـك ومسامك. تسهرين، لأول مرة، حتى الصباح تتحدثـين مع الحبيب، أو عن الحبيب. وكيف أعـرف هـذا كلـه؟ لأنني جربت هذا كله. هل تريدين أن تعرفي مـا كتبتـه، منذ عهد سـحيق، وأنـا في حالـة عشـق آسـر؟ تريديـن حسناً! اسمعي:

أنا أحلُم

أنا، ياحبيبةُ، أحلُم

أنا أغمض العينيْن .. أسبح

في جمالك... أَنعُمُ

وأراك في الاحلام فاتنتي

التي استسلمُ

لدلال نظرتها التي تتكلّمُ

للهيب قبلتها التي لا ترحمُ

أنا، يا حبيبة، احلمُ

بكِ، بالهوى، بالموعدِ

بحنيننا المُتجدّدِ

أنا لست مثل الحالمينْ

أحلام حبّكِ من يقينْ

أنا أعشقُ

أنا، يا حبيبة، أعشقُ!

أنا أعشق اليوم الذي

أشرقتِ فيه على دُجايْ

أنا أعشق الركن الذي

بددتِ فيه أسى صِباي

أنا أعشق الخصلات.. تغمرني..

وتغمر موعدي

أنا لستُ مثل العاشقينْ

فهواك أكبر من غدي

وهواك يهزأ بالسنينْ

تريدين المزيد! تستطيعين أن تستمعي إلى القصيدة مغنّاة وملحنة. لحنها وغناها، منذ مدة، الفنان الخليجي المشهور أحمد الجميري. والحديث، أيتها الحلوة، ليس عني. الحديث عن صديقي ناجي الذي لا يزال يواصل بكائياته:

عشتُ .. وامتدّت حياتي. لأرى

في الثرى من كان قبلاً في القِممْ

إنهيارُ المُثُلِ العليا.. وإنكـــــارُ

آلاء.. وكفــرٌ بالقِيَـــــمْ

من يكن عضَّ بناناً.. نـــــدماً

فانا قطعّتُ إبهام النَـــــدَمْ

وإذا إنحط زمان ...لم تجـــد

عـــاليـــاً ذا رفعـــةِ إلاّ الألمْ

من حسن حظ شاعرنا أن أحداً لم يكتب تقريراً "للأجهزة" يوضح فيه، تبرعاً مشكوراً، أن المقطع هجاء في رجال الثورة. أو رجال التطهير. ولو فعل أحد ذلك لما اكتفت الأجهزة " بالتطهير". وتلك قضية أخرى شائكة. لا تهمنا الآن. ما يهمنا، الآن، هو أن صديقي ناجي لا يصلح فيلسوفاً. حين يتفلسف يصبح شعره أثقل من الفضولي الثقيل، ولا شيء أثقل من الفضولي الثقيل. ومن حسن حظنا أن ناجي لا يتوقف عند الفلسفة طويلاً. يجذبه الشعر،عُنوةً، إليه. الفلاسفة لا يقطعون إبهام الندم. ولا يعلنون رفعة الألم في الزمن المنحطّ. ويا لهذا الزمان المظلوم، المأكول المذموم كخبز البخيل. هل يتغيّر الزمان؟ أسألك أنتِ! أليس هذا هو الزمان الذي تعرفينه وتألفينه منذ ولدت؟كيف غدا، فجأة، شيئاً ذا نكهة أخرى عجيبة؟ الزمان هو الزمان. ما جدّ هو الحب. الحب هو الذي زرع في ذراعيك جناحين. وفي صدرك زوبعتين. وفي شفتيك جمرتين؟ هل لمست جُرحاً عندما تحدثت عن الشفتين اللتين تحوّلتا إلى جمرتين؟ لا تجيبي! لا تجيبي! اسمعي ناجي:

ضحكةٌ... ساخرةٌ .. هــــازلةٌ

وخيالٌ تافهُ هذى الحيــــــاةْ

هذه الأكـــــذوبة الكُبرى التي

خُدِع الناسُ بهـــا ... واأسفاهْ!

ذلَّ فيها المال والجــــــاه إلى

ان غدا أحقرها مالٌ وجـــــاهْ

نحمد اللّه على أنّا بهــــــــا

لـم نَصُن مـن ذلةٍ .. إلاّ الجباهْ

عــاد الفيلســوف الســوداوي وطــرد الشــاعر الرومانسي. ووجدنــا أنفسنا أمـام هـذه الصـور المملّـة المكـرره. هجـاء الزمـن. هـل تـرك المتنـبي لأحـد شـعراً يصلح لهجاء الزمان؟ تأمّلي بيت المتنبي:

أريد من زمني ذا ... أن يبلغنّي

ما ليس يبلغه من نفسه الزَمَنُ

أعلمي، يا حلوتي، أن كثرة استخدام المتنبي لـذا ولذي حيرت سادتنا النقاد الكبار، قديماً وحديثـاً. ولـو

أدركوا أنه يستخدم " ذا " ويستخدم " ذي " في كل موضع لغرض يختلف عن الغرض الذي يتوخّاه في الموضوع الآخر لإنجلت عنهم الحيرة. ومن أنا حتّى أبدّد حيرة سادتي النقاد الكبار؟ المتنبي يستعمل ذا، هنا، للتقليل والتصغير والازدراء. على خلاف استخدامه لذي في قوله:

ذي المعالي فليعلّون مَنْ تعالى

هكذا هكذا! ... وإلاّ فلا لا!

أي قيمة لزمنه- ذا!!- الذي لا يستطيع بمن فيه من ملايين البشر وما فيه من بلايين الأشياء أن يبلغ ما يريد المتنبي، بمفرده، بلوغه؟! هكذا وإلا فلا، يكون هجاء الزمان! ناجي، الشاعر الرومانسي، ليس هو الذي يتحدث معنا الآن.الذي يتحدّث تيار جارف من التعاسة، تيار لم يجد الوقت الكافي ليختمر شعراً فهو ينطلق، كيفما إتفق، نثراً حيناً، وشعراً حيناً، وكلاماً ممجوجاً، لا هو بالنثر ولا بالشعر حيناً. لم يكن ناجي سعيداً في تلك الفترة، أيتها السعيدة الصغيرة. كان

يعيش الخريف بكل صحاريه ورياحه النائحة وقبوره.
لماذا لا نعود إلى صاحبك؟ كان، إذن، يوزّع "كارزماه" وكنتِ، إذن، مجرد وجه بين الوجوه؟ لا أصدق! تقسمين؟ حسنا! أصدّق ! عجيب أنه لم يلاحظك. كيف يمكن لهذا الجمال أن يخفى؟ هل هو مصاب بالعمى؟ أم تُراه قصير النظر؟ مُجرّد مداعبة! لا بدّ أنه لاحظك في النهاية. وإلا لما كان ما كان. اللقاء والعصفور الذي ينتفض والدموع. هل قلتِ أنه فنّان؟ عفواً! تصورت أنك قلت شيئاً كهذا. لنعد إلى ناجي ولنر ما كان من أمره. خبر سعيد! عاد الشاعر وطرد الفيلسوف:

عبثاً أهـــربُ من نفسي... ومِنْ
ذلك الســـاكن روحي والبَدَنْ
من لقَلبٍ مستَطـار الشوق مَنْ
كلّما عاوده التذكـــار جُنْ ؟
أينما أمضى فحوْلي ذِكـــــر
وحبيبٌ .. ومكانٌ.. وزَمَـــنٌ

وربيعٌ دائمُ الخضــــــــرة في

روضة النفسِ .. وطيرٌ .. وفَنَنْ

هذا أفضل! هذا أفضل بكثير ! قلت لك أن مزاج الشعراء لا يثبت على حال. ومزاجي أنا؟ ومزاجي أنــا! ذهبتْ الصور الجنائزية القاتمة. وعاد الربيع الطلق يختــال ضاحكاً. وأصبحت النفس روضــة. تـأمّلي هـذا التعبـير الجميل "روضة النفس". هل يحتاج من يحمل روضـــة في نفسه إلى البحث عن ربيع؟ هل يشـــعر بـأي حاجـة إلى "المـاء والخضـرة والوجـه الحسـنَ؟" هـل يـرى ضـــرورة للتجول في " هايد بارك " صباحاً. وفي ريجنـت بـارك، مساءً ؟ يشجعك هـذا الحديـث، أيهـا الحمقـاء الجميلـة الصغيرة، علـى التمـــاديّ في غيّــك. يشـــجّعك علـــى الإندفاع كفراشة محمومة إلى ذلك كـــاللّهيب القرمـزي الظامىء. تبحثـين عـن الـريّ في النـار كمـا يفعـل كـل العشاق. هل تريدين نصيحــة ؟ لا تريديـن ؟ أحسـنـتِ! منذ متى استمع العشاق إلى نصائح من أحـد؟ لِنَعُـد إلى صديقنا. وقبلها لنعد إلى " زازا ". ماذا كان مـن أمـر

"زازا" ؟ ماذا فعلت مع شاعرنا الذي كان، كما يقول لنا صالح جودت، يعيش في تلك الفترة، "قسوة من الدهر، وقلة في العافية، ونقص في المال، واستسلام مطلق إلى اليأس؟" يقول صالح جودت:

ظلت " زازا " إلى جانبه إلى آخر أيام
حياته، تهبه حياتها وهي صبيّة
وهو شيخ يقترب من الستين، وهو
فوق ذلك قليل الحظ من الجمال والصحة
والفحولة ... مريض بذات الرئة، فما
من شك أنها كانت تحبّه حُبّاً مثالياً
لا غاية وراءه إلا الحب في ذاته [1]

هذا، ياصغيرتي غير الدبلوماسية، كلام دبلوماسي ترجمته أن " زازا " لم تكن تحب ناجي وإنما كانت تشفق عليه. مجرد شفقة ! والشفقة قد تكون أنبل من الحب وأسمى، إلاّ أنها ليست حُبّاً.المرأة عندما تحبّ،

---

١. سامي الكيالي، مرجع سابق، ص ٣٥٨.

أيتها الأميرة الحلوة، تحبّ بروحها وبجسدها. الحب، بالروح وحدها، رأفة ملائكية (ولا تنسي أن " زازا " كانت، بدورها، مَلَكاً!). والحب، بالجسد وحده، شبَق حيواني. وأنت يامن أحسست بتأثير " الكارزما "، تفهمين معنى كلامي جيداً. وإلاّ لما احمرّ وجهك حتى لا أكاد أرى وجنتك من كثرة الورد، كما قال شاعر يحبّ الورود. هل مللتِ الحديث؟ لحظة! لحظة! القصيدة تقترب من نهايتها:

قصّةٌ خالدةٌ... لا تنتهي

وهي ما كان لها يومُ إبتداءِ

أنا لا أدري متى كان... ولا

أين عند اللّه اسرارُ اللقاءِ

حينما لاح شهابٌ في سمائي

أسمرُ النور.. رفيعُ الخُيَلاءِ

عبقريٌ ... موحشٌ .. منفردٌ

متعالٍ .. قلقَ الأضواءِ .. ناءِ

هذا موضع من مواضع التأوه في الشعر! اوآه!
اوآه! اوآه! أتصوّر أن ناجي كان يصفك،هنا، وهو يصف "زازا". هل تذكرين أني قلت لك أن ناجي كان سيحبّك لو رآك؟ الآن، أستطيع أن أقدّم لك الدليل. كلّ الأوصاف في هذا المقطع تنطبق عليك، وصفاً وصفاً. أنت شِهاب (وما أسرع رحيل الشهب!) في السماء. اسمر النور! هل سمع أحد بنور أسمر، قبل ناجي أو بعده؟ رفيع الخيلاء! ألا تكفي الرفعة وحدها؟ ألا يكفى الخيلاء وحده؟ وحسنك أنت عبقري. ولا تفزعنّك هذه الكلمة فكل ما تعنيه أن حسنك فريد. ومُوحش، بدورها، تعني الشيء نفسه. الحسن الفريد يحس بالوحشة (لأنه فريد). والوصف الثالث، منفرد، يؤكّد المعنى. وأنت يا أشهى طفلة / امرأة مخلوقة فريدة. وحسنك متعال (" إنما العاجز من لا يستبد! "). وقَلِقِ الأضواء. آه! ما أجمل هذه الأضواء القلقه التي ترقص في عينيك الآن. هل يغار صاحبك يا "ناتاشا"؟ ولِم يغار؟ أنا على الارض وأنت، كمحبوبة ناجي، نَجم بعيد. آه ! النجم! بدأتْ القصيدة بالنجم البعيد.

وتنتهي بالنجم البعيد. ماذا قلتِ عن صاحبك؟ تخشين أنه لا يحبّك؟ أنا أعتقد أنه يحبّك ويخاف أن يحبّك. يا لحظّك العاثر، أيتها الأميرة الجميلة! تتمنّاك العيون كلها، والقلوب كلها، وتقودك " الكارزما " إلى حبيب يؤثر السلامة. حبيب جبانّ! عفواً! حبيب متردّد. ناجي لم يكن حبيباً متردداً أو جباناً. لو رآك لأحبك حتى الموت، كما أحبّ " زازا " :

هـــــو في الأفق بعيدُ وهو دانِ
هو في نفسي.. وروحي.. وكياني
مخطيء من ظـــنّ أنا مهجتـــانِ
مخطيءٌ من ظنّ أنّا توأمــــانِ
هو شطر الروح .. لا توأمهــــا
هو منها .. هو فيها.. كـــلَّ آنِ
نحن نبضٌ واحدٌ ... نحـــن دمُ
واحدٌ .. حتى الردى متّحـــدانِ

هـــذا موضــع مـــن مواضـــع الصمـــت في الشعر.اسـكتي! لـن أعلّـق انـا. ولا تعلّقـي أنـت! حتـى الردى! مات ناجي في السنة التي نشر فيها القصيدة، في مساء ٢٤ مارس ١٩٥٣. وقالت " الاهرام " العتيدة في نعيه:

ترك في كـــــل دائرة من دوائر عمله
أثـــــراً مذكـــوراً بالتقدير والعرفان
على كل لســـــان، ولن ينسى أحد
من عرفوه ما كـــــان عليه من دماثة
الخلق وفضيلة التواضــع ورقة الحاشية
والسمو بالواجب إلى أعلى المراتب [١]

مات الرجل الذي كان كما قال صديقه إبراهيـــم المصري :

يحب الجميــــع، ويخلص، ويخدم الجميع،
ولا يداهن ولا يغتاب ولا يشي ولا يتكبر
ولولا بعض الحيـــاء في الطبع اكسبه إياه

١. حسن توفيق، مرجع سابق، ص ٩٥.

فرط الأدب وراضه على الصفح والتجاوز
مـــــن حيث لا يجب التجاوز، والصفح
لما وجـــدت أي مغمَزٍ فيه..[1]

ماذا تقولين في إنسان عيبه الوحيد الحياء والصفح والتجاوز؟! رحمه اللّه رحمة واسعة! وماذا فعلت" زازا " عندما سمعت النبأ؟ مزّقت ثيابها؟ سقطت مغشياً عليها؟ انهمرت دموعها وعلا نشيجها؟ لا : لــم تفعـل شيئاً من ذلك. يقول لنا صالح جودت:

وعندما مات لـم تحزن " زازا "، ولـم تلبس
عليه السواد، وإنما فعلت هـــــذا لا عــن
جحود، بل عن فلسفة فوق فلسفة الأرض،
وعن إيمان منها أن الشاعر لــــــم يمت.
كل ما حدث أنه ذهب ولـم يترك عنوانه[2]

١. سامي الكيالي ،مرجع سابق، ص ٣٦٣.
٢. سامي الكيالي ،مرجع سابق، ص ٣٥٨.

فلسفة غريبة بعض الشيء اسمها الحقيقي الشفقة!

" ناتاشا !"

عندمـا أذهـب أنـا ولا أتـرك عنوانـاً هـل ستقولين:".. نم نومة هانئة أيها الأمير الحلو؟!" لا أطمع في هذا. يكفي أن تقولي عني ما قاله ناجي عن نفسه:

فراشة حـــــائمة

على الجمال.. والصبا

تعرضت فـــاحترقت

أغنية علـــى الـرُبي

مَع ناجي... ومَعَها

... إذا شعرتِ عندما تقرأين شعراً أنه يعبّر عن لحظة في حياتك انتِ، ويعبّر عنها بطريقة موسيقية، فأعلمي أنك بصدد شعر. وشعر ناجي قريب من قلبي لهذا السبب. أحسّ عندما أقرأه انه يتحدّث عن حبّي أنا. عن ظمأي أنا. عن شقائي أنا. عن سعادتي أنا. لا تقرأي، يا حلوتي، سوى الشعر الذي تجدين نفسك فيه. وأرمي ما عداه. بلا مبالاة. اتركي بقية المعايير لسدنة النقد العظام. دعي أعظم الشعراء لأعظم الأكاديمين. واتركي امراء الشعر لملوك التنظير ...



